

## أدب وتراث

### لا حياة هنا

مقتبسة من مجموعة قصصية

للروائية الإفريقية أما آتا عيدو، ترجمة: عمارة زينب

كان جميلا، إلا أن هذا ليس مهما. لا يلعب الجمال دورا حيويا في حياة الرجل كما هي الحال عند المرأة ، هذا ما يعتقدونه الناس. إذا كان جمال الرجل ممزوجا بفضاضة

، فإن الناس سيتجاهلون ذلك الجمال. فقط فتاة مثلي، قليلة التواضع يمكن أن تتجراً وتقدم تعليقا على جمال فتى. "(كويزي) فتى وسيم جدا"، كنت أقول هذا دائما لأمه " إذا غادرت هذا المكان يوما ما وانتقلت فإنني سأخطفه"، كنت أحب أن أمازح تلك المرأة الطيبة كما كانت هي أيضا تحب أن أمازحها به. تبدو وكأنها خجولة، سعيدة وعلى وشك البكاء، كل هذا في لحظة واحدة.

" إيه (شيشا) لا يجدر بك أن تقولي هذا. الفتى ليس وسيما حقاً. لكنها تعرف أنها تكذب " على كل (شيشا) من يهتم إذا كان الفتى وسيما أم لا؟" مرة أخرى هي تعرف أنه على الأقل هي تهتم لذلك، على كل، ألا تسلط هذه الشخصية المحببة لهذا الفتى الضوء على حيوية أمه على الرغم من أن وجهها شاحب؟ تصرح بعدها بخوفها باهتمام فائق وبطريقة واضحة " أرجوك (شيشا) أعرف أنك تحبين مداعبتي، لكن عديني من فضلك ألا تأخذي (كويزي) بعيدا عني" بعدها وفي الآن ذاته حركت فمها الصغير وتحت ملابسها خبأت عينيها كأنها خجلة من حبها وخوفها الكبيرين على ابنها. لكنني فهمت. "أه (مامي) لا تبكي، تعرفين أنني لا أقصد ذلك".

رفعت عينيها الجميلتين وهما تشعان بالدموع "أنا آسفة (شيشا)، أنا أثق بك . لكنني لا أستطيع جمح خوفاً، ماذا يمكنني فعله(شيشا)؟ ماذا يمكنني فعله إذا ما حدث شيء لابني؟"

" لاشيء سيحدث له، أنا أؤكد لك ذلك. إنه فتى جيد، إنه لا يفتعل المشاكل لذلك فهو لا يعطي لأي أحد فرصة التغلب عليه. إنه ليس مضجراً، أو على الأقل ليس مضجراً جداً. ما يعني أنه لن يتعرض للعقاب كبقية أقرانه".

تعلق (مامي) دون تفكير: " (شيشا) أنا لن أعترض على معاقبته إذا كانت نتائجه ضعيفة".

" لا تكوني مضحكة، قليل من الماء الساخن في صباح بارد لن يضره. لكن إذا وافقت فلن أعترض على ضرب بشرتك الملساء". في هذه اللحظة خفض الضغط وبدأت كلتانا بالضحك. بعدها كان علي أن أغادر وفي ذاكرتي صورة فمها الصغير ودموعها المتلألئة.

(مامي أما ) تحب ابنها، هذا غباء، بل إنه الغباء بحد ذاته.(مامي أما ) امرأة أي أم لا تحب ولدها . في خضم هذه القصة كان عمره عشر سنوات فقط، كان في الصف الابتدائي. بشرته كانت رقيقة وطرية طراوة الزبدة، وداكنة كالفحم، شعره الأسود كان ناعماً

كشعر أمه، عيناه كانتا من النوع الذي يذكر دائما بحلم طويل في عشية دافئة. إنه لمن الغريب أن أهتم إلى هذا الحد بالمظهر الجسدي لهذا الفتى، إلا أن جمال (كويزي) كان غريبا.

لم يحن المساء بعد، كانت ساعتى تشير إلى 4:15: ذلك الوقت الغامض من اليوم، الذي يصعب على هؤلاء الناس تحديده على الرغم من معرفتهم القديمة بعلم الفلك. بالنسبة للصغار والكبار كان من المؤكد أنه المساء، أما بالنسبة للماكثين في البيت طوال النهار فإنهم يقنعون أنفسهم بأن اليوم قد انتهى، مستاءون من شركائهم الهائمين في الأسواق أو المتكئين على حيطانها، في حين يبدأ الأطفال بإزعاج أمهاتهم لأنهم تعبوا من اللعب. إنهم جياع، عائدون إلى البيت ليلتهموا ما تبقى من طعام الغداء، لكنهم يأملون أن تعود أمهاتهم بما يسد رمقهم من المزرعة لاحقا. الكبار منهم لا يعودون إلى البيت لتناول الغداء لكنهم يتناولون بعض الطعام الطازج عند العاشرة.

قال العجوز (كوفي): " قلت، (كوام)، كما قلت لك في الصباح، زوجتي الأولى كانت من أجمل النساء".

" أه! أجل، أجل، كانت فتاة غير عادية، أتذكرها جيدا. " هز العجوز (كوام) رأسه، لكنه في الواقع كان متعبا فغلبه النعاس. " إن الوقت متأخر، هل عاد الشباب من المزرعة؟ " .

كنت معلمة، وكنت أنهج نهج الرجل الأبيض. المدرسة كانت مغلقة. خيمة (مامي أما ) كانت في إحدى نهايات القرية والمدرسة كانت في الجهة الأخرى. على الرغم من ذلك فالمسافة بين المدرسة وخيمتها غير بعيدة لأن (باماسو) ليست قرية كبيرة. تركت كتبي ل(أسون) ليأخذها لي إلى البيت. أخذت معي ساعة يدي الصغيرة وبدأت أسير في طريق خالية. مررت على شيوخ كانوا قد ألقوا التحية علي. كانت تحية خاصة بقريتهم.

(كودومينو شيشا) كان ينبغي أن أجيب (كودومين، نانا) عندما ألقى التحية لأول مرة كان الرد " تانشيو " .

" شيشا، كيف حالك؟ "

" أنا بخير، نانا "

" وكيف حال الأولاد "

" إنهم بخير، نانا "

" أه، هذا جيد. عندما يشعر رجل عجوز برغبة في الثثرة، لاسيما إذا كان ما في جعبته يفوق ما عندي ليقدمه للجمهور، عليه أن يجاملني فيما أقوم به، بعدها عليه أن يحث على قيمة التربية، بخاصة التربية النسائية ويختمها بعبارة د. (أقراي). "

تأخرت ذلك المساء أيضا، إلا أن التوقيت كان مناسباً، فعند وصولي إلى خيمة (مامي أما) كانت هي قد وصلت للتو من المزرعة. كان الباب مفتوحاً، يقابل القرية، كنت أستطيع رؤيتها. أوه، تلك الصورة بقيت حية في ذهني، كانت جالسة على مقعد صغير مع أشياءها، وكانت باقي النسوة يحملن من المزارع إلى بيوتهن، حمولة ملونة ومتنوعة. عند أصغر جزء من الغابة الواسعة كانت أزهار "cassava" وجذور شجرة "yam" الغنية والملساء ذات اللون البني كلون التربة. في الجهة المجاورة ينتشر (plantain) ذو اللون الأخضر كلون الخشب الذي تفرع عنه. بعدها توجد الخضراوات، الفلفل الأحمر، الطماطم الحمراء، حديقة للدجاج. إلى هذه الألوان المتنوعة انتصبت عيون النسوة، في حين تقطف الأيدي الصغيرة الفلفل برفق. طرقت الباب، تقعدت الأمر وابتسمت. ابتسامتها كانت ناصعة البياض إلى حد الدهشة.

" أه شيشا، لقد وصلت للتو "

" أنا أرى ذلك. أيكو "

" كيف حالك، بنيتي؟ "

" بخير أمي، وأنت "

" تانشيو، اجلسي، هناك مقعد في تلك الزاوية، اجلسي. اه... الحياة معركة. ماذا يمكن أن نفعل؟ إننا نحاول فقط، يا ابنتي "

" لماذا قضيت وقتاً طويلاً في المزرعة هذا اليوم؟ "

" بعد صرف هذا الأمر سأخبرك عن الأسبوع الماضي، فكرت في الذهاب لجلب (yam) واحد أو اثنين. "

صحت، أه!

" تعرفين، غدا إنه (أهوبا). حتى وإن لم يكن المرء سعيداً لكن يجب أن يحضر بعض ال (yam) لأجل (أهور) العظيم. "

" أجل. أفهم ذلك. المنقذ الكبير يستحقه، على كل حال لا يوجد دائماً رجل يضحى بنفسه للآلهة من أجل إنقاذ شعبه من العقاب. "

" لا شيشا، كنا جد محضوين "

" لكن (مامي أما) لم تبدين حزينة؟ إن (yam) كبير جدا . نظرت إلي باسمة " انظري إلى ال (yam) ليس لديه فرع في تلك الزاوية. "

" تعتقدين ذلك؟ حسنا! إنها الأفضل بين الكثير. " ابنتي عندما تهزمن الحياة فإنها تهزمننا بقوة. مثل هذه ال (yam) يعكس ثمن مثل هذه الحياة. وحياتي أنا بأئسة بما فيه الكفاية. "

"أوه، (مامي) لماذا تتحدثين دائما بهذه الطريقة؟ أنظري إلى (كويزي) أي أم ستفخر بابن مثله ؟ على الرغم من أنه طفلك الوحيد، انظري إلى الذين لم يرزقوا حتى بواحد. ربما بعض النسوة الآن جالسات في إحدى الزوايا يحسدنك "

ابتسمت قائلة " أية امرأة بأئسة يمكن أن تحسد (أما)! لكن شكرا لك، يجب أن أكون ممتنة ل(كويزي) ".

بعد ذلك صممتنا لوقت. لطالما أحببت أن أراقب حركاتها البطيئة وهي منغمكة في العمل. بعد انتهائها من ترتيب البيت، نظفت الأواني وبدأت بإشعال النار لإعداد وجبة العشاء وهي ترتل أنشودة دينية.

"إننا نصارع"

"إننا نصارع"

"إننا نصارع"

"إننا نصارع من أجل (كنا) مملكة الفردوس الرفيعة."

كنت أنظر إليها وفي نفسي رغبة بالبكاء، إنها تشبه كثيرا أمي. أثناء ذلك طفقت النار تدخن. دارت نحوي وقالت " شيشا !"

"(مامي أما)"

" تعلمين أنني غدا سأطلق من زوجي "

"أوه". لم أستطع إخفاء خيبة الأمل في صوتي.

لقد سمعت لاحقا بعد وصولي إلى القرية، أن والدي ذلك الفتى الجميل على وشك الطلاق. كنت أمل أن يصلا إلى اتفاق يضع في الحسبان مصلحة ذلك الفتى. و بعد أن تعرفت إلى أمه رغبت في ذلك لمصلحتها هي أيضا، لكن مع مضي الوقت تحققت أن ذلك أمر بعيد المنال أو لم يكن وردا حتى. (كوجوفي) كان رجلا أنانيا وجائرا لدرجة أن أي امرأة عاقلة لن تقبل الارتباط به. إنه يعامل زوجتيه الأخريين جيدا، لكنهن كنا ثلاثا. على كل، كنت جد متأسفة لسماحي أن (مامي أما) ستضع حدا لزواجها.

" نعم أنا كذلك. أنا مضطربة. لأجل ماذا سأتحمل كل هذا؟ ماذا يقاوم الإنسان بعد؟ سبع سنوات، فترة طويلة لتتحمل سوء المعاملة من رجل متزوج، وتتقبل الإهانة والشتائم من قبل زوجاته. ماذا فعلت لاستحق الشتائم من أخواته؟ ومن أمه؟".

"هل كانت تشتمك هي أيضا!".

" ولم لا؟ ألا تعتقدين أنه بإمكانها ذلك؟ إنها تظن أنني لا اشتري لها ثيابا ثمينة من السوق وأنتي لا أعطيها أفضل السمك في حسائي كما تفعل بنات بناتها"

ضحكت. "معنى الساحرة العجوز"

" شيشا لا تضحكي. أنا على ثقة تامة أنها أرادت أن تأكل (كويزي) لكنني منعت ذلك بإقامة حفلة تسميته قبل أن تتمكن من ذلك".

" آه ! لا تقولي ذلك (مامي) أنا متأكدة أن الجميع هنا يحبك، أنت فقط لا تعرفين ذلك"

" ابنتي، إنهم ليسوا كذلك، إنهم يكرهونني"

" لكن ماذا حدث؟" استفسرت عن الأمر، كنت أود ذلك منذ وقت طويل.

"سألي شيشا ! لست أدري. لقد بدؤوا فجأة يمقتونني عندما كان (كويزي) في الثانية من العمر. (كوجوفي) قلص مصروف البيت وكثيرا ما كان يرفض إعطائي أي شيء على الإطلاق. وكان أيضا لا يأكل طعامي. في البداية سألته عن السبب، كان دائما يجيبني (لاشيء). لو لم أكن امرأة قليلة الحظ، لوقفت أمه وأخواته إلى جانبي، لكنني لم أجد أحدا منهن. على الرغم من أنني كنت زوجته الأولى إلا أنه كان يقابلني **بالشوك** (أو الشكوك)

والاستصغار

" آه ! ماذا يمكنك القول بشأنه؟"

" ماذا يمكنني القول؟ في ذلك الوقت كانت أمي على قيد الحياة، في حين توفي والدي منذ فترة قصيرة. عندما كنت اشكي لها سوء معاملة زوجي لي كانت دائما تقول لي إنه على المرأة أن تكون ساذجة في زواجها. لكنني كنت ساذجة لوقت طويل".

" أوه" غضبت.

" أمي ماتت وتركتني، كنت طفلتها الوحيدة. أعمامي كانوا مشغولين بمشاكل بناتهم. لقد أخبرت أحوالي عدة مرات لكنهم لم يأخذوا الأمر بمحض الجد. كانوا يعتقدون أنني امرأة غير قنوعة".

سألتها بدهشة " أنت؟".

" ربما أنت لا تصدقين ، لكن هناك الكثير ممن يعتقدون ذلك في هذه القرية " صمتت للحظة وعيونها مشدودة إلى الأرض .

" أنت لا تعرفين، كنت موضوعا للقبل والقال لسنوات عدة، الآن أريد فقط أن أعيش نفسي وأن أهتم بولدي. لا أعتقد أنني سأنجب مرة أخرى. (شيشا) الناس هنا يقولون إن الزواج السيئ يقتل الروح. وروحي أنا جاهزة للدفن".  
" مامي لا تحزني " .

" بنيتي، أمي وأبي **الذان** (الذان) أتيا بي إلى هذه الدنيا تركاني وحدي، وقد توقفت عن الحزن عليهما. عندما جاءهما الموت، كانا سعيدين لوضع أدواتهما والالتحاق بوالديهما. أجل. كانا يحباني، هذا صحيح، وعلى الرغم من ذلك تركاني. لماذا أحزن على رجل توقفت عن الوجود بالنسبة له منذ وقت طويل؟" .

ذهبت إلى القفة الكبيرة، وأخذت بعض زهور (cassava) و (plantain) وبدأت بتقشيرها. لتتذكر أن عليها إحضار صحن الخشب الذي ستضع فيه الطعام، في حين واصلت الحديث معها .

" ماذا سيحدث ل (كويزي) ؟ "

أجابتي مستغربة " ماذا سيحدث له؟ هذا ليس بمشكلة. ربما قد يعرضون علي أن أتركه مع والده " .

" وهل ستفعلين "

" لا لن أفعل "

" وهل ستجحين في الحفاظ عليه إذا ما أصر والده على أخذه؟ "

" حسنا، يجب أن أقاوم. بالنسبة لطفلي إنه ابن والده أيضا لكنه ينتمي إلى عائلتي "

بقيت هناك استمع بدهشة إلى تلك الخلفيات القديمة لتقاليد كنت أجهلها.

نظفت الطعام وقطعته إلى قطع ووضعته في القدر، أضافت عليه الماء ووضعته على النار.

" مامي أما، إن زوجك لا يملك الحق ليأخذ منك كويزي؟ "

" أفترض أنه يملك الحق لذلك، لكن ليس بشكل نهائي. لا عليك، إذا طلب مني الشيوخ

الذين سيعقدون الطلاق أن أتركه مع والده فلن أمانع."

" أنت امرأة شجاعة " .

" لقد علمتني الحياة أن أكون شجاعة. " رمقتني بنظرة وابنتمت وسألتني كم الساعة؟."

أخبرتها " إنها السادسة إلا ست دقائق "

علقت قائلة " وكويزي لم يعد بعد إلى المنزل؟ "

صوت مرتفع يقول " ماما، أنا هنا "

" زوجي، أخي، أبي، كل ما أملك في الكل، أين أنت؟ " كان هو، الكل في واحد. بالنسبة لهذه القروية المنهكة، فإن الشمس يجب أن تشرق من الشرق على الرغم من وقوفها خلف شجرة (جوز الهند) أل (coconut). عيونها كانت تلمع. ألقى علي (كويزي) التحية وبعدها على أمه. بدا الخجل على محياه، ركض إلى الغرفة الداخلية أحدث صوتا مزعجا ما يعني أنه أسقط كتبه على الأرض.

نادته أمه " (كويزي) لطالما قلت لك أن تضع كتبك بعناية. لم أشتريها بالرمل يجدر بك أن تكون حذرا"

عاد إلى حيث كنا، نظرت إليه، كان متسخا جدا. اتسخ رأسه وأذناه وعيناه بالرمل. ملابسه كانت ملطخة بالطين والطباشير والعصير، وأكمامه مبتلة. نظرت أمه إليه نظرة غضب ممزوجة بالحنان. " كويزي، أنت متسخ جدا، أنظر ماذا فعلت بنفسك، أنت تخرجني. أي شخص سيظن أن أمك لا تعتني بك جيدا. " ضحكت لأنني أعرف أنها كانت تقصدي بكلامها ذاك.

عاتبته قائلة " ألا يمكنك اللعب دون أن توسخ شعرك بالرمل؟"

لم يكثر ذلك " أنا جائع " . ضحكت.

" نادم، نادم، وشيشا هنا، أترين شيشا؟ إنه لم يجلب لي الماء، ولم يجلب الحطب للنار، ولم يقلع الأعشاب الضارة في المزرعة كما يفعل الأطفال لأمهاتهم كل يوم سبت. إنه يأكل، يأكل فقط."

نظرت إليه، فهرب مرة أخرى إلى الغرفة الداخلية. بدأنا بالضحك عليه أنا وأمّه، وبعد وقت قليل همت بالمغادرة. (مامي أما) حاولت منعي " شيشا أريدك أن تبقى معنا لتناول الطعام، لهذا أنا أسرع في تحضيره "

"أوه، لا عليك. تعرفين أنني آكل هنا عند مجيئي، لكنني اليوم مضطرة للذهاب، عليا تصحيح كراريس التلاميذ."

" حسنا، لا يجب أن أعطلك عن عملك "

"غدا سأتي لزيارتك. أعدك بذلك "



"آه، شكرا لك"

" نامي جيدا مامي "

" نامي جيدا أنت أيضا بابنتي "

مشيت إلى الباب، كانت الشمس على وشك الغروب.كنت أسير ببطء. قبل أن أبتعد، لحقت بي(مامي) ونادتني " تذكري، إذا لم يتحصل (كويزي) على علامات جيدة، سأتي إلى المدرسة وأستلم كشف نقاطه، إذا أخبرتني بذلك "

صرخت " آوه" ثم واصلت طريقي.

اليوم التالي كان (أهوبادا) إنه يوم الفرح للجميع. في الصباح يردد الجميع عادات العائلات العريقة. كان كل شيء طبيعيا في عائلة (مامي أما). خالاتها تصالحن \_ أو كن يعتقدن\_ مع أنفسهن لأنه عندما كانت والدة( مامي أما) تحتضر أوصت بكل مجوهراتها لابنتها الوحيدة.هذا كان أحد الأسباب التي جعلت خالات وعمات( مامي أما) يقاطعنها. **كنن** دائما يرددن" لقد حصلت على كل أشياء أمها، ماذا تريد بعد؟". أما الآن، فيبدو أنهن قد تفهمن الأمر. (أهوبا ) هو موسم الأمانى السعيدة، لكن للأسف (مامي أما) على وشك الطلاق هذا اليوم...

لم ينص في أي مكان من قانون التربية بأن الأطفال سيمنحون عطلة أثناء المهرجانات المحلية. لذلك تعاطفت معهم ، لأنني لم أستطع إعطاءهم عطلة على الرغم من أن (أهوبا) مناسبة هامة جدا بالنسبة إليهم، لقد تركوها بطبيعة الحال وهم مستاءون لأنهم أرغموا على الذهاب إلى المدرسة. في حين أن أصدقاءهم الماكثين في البيت كانوا يأكلون الكثير من ال(yam) واللحم.لكنهم أخذوا بثأرهم مني، لقد كانوا يعبثون طيلة اليوم، والأسوأ أن القسم كان مجرد غرفة خشبية كبيرة. بدأ الجميع بالتشويش، عندما أدت وجهي بدأ القسم الثاني والثالث بالصراخ.آوه ، كان الأمر مضحكا. في الظهيرة، وبعد العودة من البيت وتناول بعض ما تبقى من طعام المهرجان، كادوا يقودونني للجنون. لذلك أكملت الدرس عند الساعة الثالثة، وبدون أي إحساس بالذنب سمحت للجميع بفسحة للراحة واللعب. ركض الجميع مسرعا إلى الحقل ، كنت أنوي الذهاب لحضور مراسيم الطلاق التي بدأت عند الواحدة، ثم العودة عند الرابعة لتسريح الأطفال.حالات الطلاق هذه تستغرق ساعات لكي تتم، كنت آمل أن ألحق بعضها منها.

أثناء مرور بين الصفوف اصطدمت رجلي بإحدى الطاولات، فوقعت الكتب التي كانت عليها، عندما جمعتها لاحظت أنها ل(كويزي)،كانت الطاولة التي يتقاسمها مع فتاة

صغيرة. بدأت أفكر فيه. تذكرت كل كلمة من النقاش الذي دار بيني وبين أمه ظهيرة أمس. أصبحت حزينة لتوقع فراق محتمل بين الأم وابنها. في طفولته كانا يعرفاني بعضهما فقط، أم وحيدة، وابن وحيد. كانت تحمله على ظهرها تحت أشعة الشمس الحارة وهي تقتلع الأعشاب الضارة من الحقل. كانت تضطر إلى وضعه تحت شجرة في الظل عندما لا يوجد من يعتني به؟ النساء الأخريات لديهن أخواتهن الأصغر منهن أو أخوات أزواجهن ليساعدنهن في تربية الأولاد. لكن هي لم يكن لها أحد تعتمد عليه. الوجه الوحيد الذي يعرفه ذلك الصغير كان وجه أمه، والآن...

قلت " لكن، أنا متأكدة أن كل شيء سيكون بخير معه."

سألت نفسي " هل سيكون كذلك حقاً؟ "

" لم لا؟ إنه طفل سعيد "

" هل سيحل هذا المشكلة "

" ليس كلية، لكن..."

" بدون لكن، يجب أن يفكر المرء أي بيت سيأخذه. فهو لن يكون صاحب الخيار هناك ."

إلا أن صوتي الأخر كان يقول لي، إن الطفل لا يحتاج لأن يكون صاحب الخيار ليكون سعيداً.

كان لا بد أن أضع حداً لتخميناتي، يجب أن أسرع. عندما مررت بالحقل رأيت بعض الأطفال يلعبون كرة القدم. في المرمى، وفي النهاية البعيدة بدا لي شعر يلمع تحت شمس الظهيرة. كنت أعرف لأي جسم ينتمي، حارس المرمى شخصية مريبة في لعب كرة القدم عند الأطفال، من المحتمل أنه حارس جيد لهذا السبب هو في ذلك الموضع، إن الأطفال يعتقدون أن حراسة المرمى مهمة صعبة أو أن الحارس لاعب رديء، فإذا كان لاعباً رديئاً عليه أن يكون في المرمى أفضل من أي مكان آخر. (كويزي) يحب كرة القدم. هذا أكيد كان دائماً يشغل حراسة المرمى.

سواء كان جيداً أم لا لم يكن بوسعي رؤية ذلك. فقط عند مروري التقطت كرة فصفق الجميع له. سمعته وهو يحدث ضجة صغيرة أثناء ضحكه. لا شك أنه طفل سعيد.

كان علي أن أجري نحو القرية. اتجهت في الحال إلى بيت (نانا كوم). سمعت صراخاً حاداً في الجهة المقابلة للبيت. " لماذا يحتشد هذا الجمع من الناس هنا؟ " تذكرت بعدها

أنها العطلة ومن الطبيعي أن يبقى الجميع في القرية هذا اليوم، فبعد أن أكلوا وشربوا في الصباح ومنتصف النهار، فإن مراسم الطلاق تشكل بدون شك تغييرا رائعا لاسيما عندما يتعلق الأمر بأشخاص غيرنا.

كانت قاعة المحكمة طويلة، اندفعت حيث تجلس (مامي أما) تهافتت إلى مسامعي جملة من التعليقات قال أحدهم " من المؤكد أن الشيوخ سيحكمون بعدالة". قال آخر " لكن يبدو أن (كوجوفي) لايملك حججا مقنعة" قال ثالث " حسنا. كلاهما في موقف حساس. إذا أحس الرجل بأنه لا يستطيع العيش مع امرأة فعليه تطلقها. وأنا اكره المرأة التي تخاف زوجها ". وصلت أخيرا إلى جانبها، كان حولها عائلتها، خالتها(إيزي وآما) عماتها وخالاهما. على اليمين يتواجد الشيوخ الذين سيحكمون. في الجهة المقابلة يجلس (كوجوفي) وعائلته.

" لقد جنئت (مامي أما) " قلت لها.

نظرت إلي وقالت " يجدر بك أن تكوني هنا باكرا. المراسيم بدأت منذ وقت "

سألتها " وكيف تجري الأمور؟ "

" أنا امرأة مطلقة "

" ماذا كانت حجته لكي يطلقك؟"

" قال، إنني لم أفعل شيئا، إنه يريد فقط..."

" إيه! أنتما فقط من يعرف المشكلة." صرخت الخالة الصغرى بغضب قائلة" كان سيدفع

نفقة الطلاق مقابل قبولك، لكنك أعطيته ما يريد الآن " .

احتجت مامي قائلة " لكن خالتي كيف يمكن أن أرفض الطلاق؟ "

" إن الأمر يخصكما أنتما الاثنان، أعرف أنها قضية خاصة، لا أريد فقط أن تعتقد روح

أمك أننا تركناك وحيدة دون أن نعنتي بك جيدا"

" أنا أوافقك " قالت الخالة الكبرى.

سألتها " مامي أما بكم يدين لك؟"

" إنه مبلغ كبير "

" أمل أن لك أيضا ما تحسبينه ضده ؟ "

" إنه يدين لي بالمهر وعشرة أثواب أعطها لي "

قيل كل هذا على مسامع (كوجوفي) وعائلته وعاجلا أصبحنا قلقين بشأن هذا الأمر.

اندفعت أخته الصغيرة قائلة" كوجو، نسيت أن تحسب السكن "

رد عليها كوجوفي " لا، يا! لم أنس. ليس لديها إخوة لمن أعطي السكين "

أضافت أخته الثانية " حسنا إذن "

لكن باقي أقارب زوجاته استغلوا الفرصة لتعليقات أكثر .

صاحت إحدى الخالات " إنها امرأة سيئة وأنا أعتقد أنك أحسنت بالتخلص منها "

قالت الأخت الصغرى " أعتقد أنها مشعوذة "

" آه، إنها كذلك. على كل حال المشعوذات فقط من لا إخوة لهن. لقد أكلناهم في رحم أمهاتهم قبل أن يلدن بزمن طويل "

في حين لم تتفوه خالات وعمات (مامي أما) بكلمة لوقت، كأنهن اقتنعن بأن (مامي أما) هي حقا مشعوذة. لكن (مامي أما) بقيت جالسة، بعد أن خمدت تلك التعليقات لفترة لخصت لي ما حدث.

" كما قلت لك شيشا، لقد عدد أيضا ثمن الصندوق الذي أعطاه لي وكل النفقات الطبية التي دفعها لكي أحمل مرة أخرى، نفقات البيت فقط ما أملك لأحسبه ضده "

سألته " هل تملكين المال لكي تدفعي الديون؟ "

" لا، لكن سيدفعها أخوالي وسيضعون الفواتير باسمي "

" أوه "

صرخت الخالة الكبرى لمامي قائلة " لكن أنت غبية" ألحت على ذلك " قلت إنك غبية "

بدأت مامي تحتج " لكن خالة.... "

" أجل! وآمل أنك لن تجادليني. لقد ولدت قبل أمك، والآن بعد وفاتها، أنا بمثابة والدتك! إلى جانب ذلك، عندما كانت حية كان بإمكانني معاتبته عندما ترتكب أي خطأ، والآن أقول لك، إنك غبية. صارت لسبع سنوات من أجل طفل. سواء كان يأكل أم لا تلك كانت مسؤوليتك أنت. إن كان لديه ثياب أم لا كان أمرا لا يخص أحدا غيرك، عندما كان (كويزي) طفلا كان بدون أب، حين كان يحتضر بسبب إصابته بالبوحمرون لا جد التفت إليه. وبالنسبة لخالاته بدأ يعرفهن فقط عند دخوله إلى المدرسة. والآن أنت تسمحين لهم بإبعاده عنك، الآن وقد كبر قليلا بدأ يعد من الأحياء، تقطن الأب أن له ابنا "

صرخت أم (كوجوفي) في وجهها " حسنا، حسنا، ماذا تظنين؟ أن يقدم (كوجوفي) ولده لكم كهدية، إيه؟ الولد ينتمي إلى عائلته، وأبوه أحق به منكم "

سألت خالة (أما) المرأة العجوز " هل ذكرت إسمك؟ "

ردت عليها الأخت الصغرى ل(كوجوفي) " لم تذكر اسمها، لكنك تتكلمين ضد ابنها  
"ابنتي خالة (أما) علفت " ومن أنت لكي تجادلي أُمي "  
" انصرفوا، لكن من تكونون؟ "

" انصرفوا، لقد ثرثرت كثيرا "

" أنتم من ثرثرت أيها المشعوذون "

" أنتم تتادون الناس دائما بالمشعوذين. المشعوذة فقط من يمكن أن تعرف المشعوذة "

بدأ كل واحد يصرخ في وجه الآخر. الناس الذين حضروا هناك هموا بالانصراف إلى بيوتهم، فقط  
الفضوليون منهم من بقوا للاستماع. همست (مامي أما) شيئاً تحت أنفاسها، لم استطع سماعه.  
أقنعتها بالذهاب معي، مر كل ذلك الوقت ولم تتبادل ولا كلمة مع زوجها السابق. أثناء تأهبنا  
للانصراف، صرخت أم (كوجوفي) في وجهها " أنت مجروحة. لكنك تستحقين ذلك. سنأخذ الطفل،  
سنأخذه! ماذا تريدان أن تفعلين به؟ "

دارت (مامي أما) ونظرت إليها " ماذا تظنين نفسك لكي تثيري كل هذا ؟ عندما قال (نانا  
كوم) إن الطفل يجدر به البقاء مع والده، هل اعترضت على ذلك؟ إنه في المدرسة،  
اذهبي واحضره. غدا يمكنك إرسال عمالك لجمع أشياءه من الخيمة "

قالت هذه الكلمات بسرعة كبيرة، تذكرت بعدها أنه لا بد من الإسراع إلى المدرسة لتسريح  
الأطفال. قلت ل(مامي أما) أن تعود إلى البيت وبأنني سأحاول رؤيتها قبل حلول الظلام.

هذه المرة لن أمر بالطريق الرئيسي. سأخذ الباب الخلفي عبر الطريق الخلفي والمضيقات.  
كانت الساعة تشير إلى الرابعة تقريبا، في طريقي إلى المدرسة وأنا مسرعة، سمعت  
صرخة عالية وحادة، كنت أظنها صدى لشجار ما، لذلك تابعت طريقي. عندما وصلت  
إلى المدرسة، لم يعجبني ما رأيته. لم أجد أحدا هناك، إلا أن كتب الأطفال بقيت في  
مكانها. كانت الفوضى تعم المكان كما لم يحدث من قبل، وقد عمت حتى كتبي. بطبيعة  
الحال كنت أكثر من حائرة " كم أن هؤلاء الأطفال مشاغبون، كيف يجروون على  
عصيانني، لقد قلت لهم أن ينتظروا حتى عودتي لتسريحهم ؟ " لم يكن هناك جدوى من  
البحث لأنهم ليسوا هناك. هددت وحدي في القاعة " أنهم يستحقون التأديب ". جمعت كتبي  
و ساعتني. ثم لاحظت أن طاولة (كويزي) خالية من كتبه، لأشياء يستدعي الاستغراب  
بهذا الشأن، من المحتمل أنهم أخذوها إلى البيت. أثناء هبوطي التلة للمرة الثانية هذا  
المساء، رأيت أن كل المدرسة كانت في النهاية الأخرى من الطريق الرئيس. " ماذا يفعل  
الأطفال قرب مكان (مامي أما) ؟ أسرعت نحوهم.

لم أكن مستعدة لما رأيته، شكل الأطفال حلقة كأنها مقصودة، عندما رأني أحدهم بدأ الجميع يخبرونني بما حدث، لكنني لم أسمع كلمة. في وسط الدائرة، كان كويزي ممدداً على ظهره، و قميصه مقطوع، ذراعه اليمنى منتفخة بحجم رأسه. لم استوعب الأمر كنت واقفة هناك وفمي مفتوح. من جهة الساحة الخلفية صرخت (مامي أما) بأعلى صوتها " أنا أغرق يا أهل (بامسو)، تعالوا، انجدوني! " بعد وقت قصير احتشد جمع من الناس هناك.

" ما الأمر؟ ماذا حدث؟ (كويزي) لدغته حية. أين؟ أين؟ في المدرسة، كان يلعب كرة القدم، أين؟ ماذا حدث؟ لدغته حية. حية، حية... "

أسئلة وأجوبة تتناقل من فم إلى فم في ذلك الجو المسائي المأساوي. بينما أعطى بعض الذين يعرفون عن لدغات الثعابين أسماء لبعض الأدوية . والد (كويزي) كان ينظر بخشية إلى ابنه. ذلك الأب الضخم القوي بدا في تلك اللحظة ساذجاً من الصدمة والخوف. جرعة جرعة أخرى ابتلعها بصعوبة، لكن لا شيء يبدو أنه ناجح. النساء في غدو ورواح حول الخيمة دون أن يكثرن بأن وجبات المهرجان بقيت نصف محضرة. كل واحدة تحاول أن تتخيل كيف يمكن أن تتصرف لو أن (كويزي) كان ابنها، وفي الخيال، يتعذبن أكثر من الأم ذاتها " لتحميننا الآلهة وأرواح آبائنا من الكارثة . "

بعد الذي بدا أنه لا يطاق لوقت طويل، وصل الرسول الذي بعث إلى (سوردو) القرية المجاورة ل(بامسو) ليأتي بالمرض متبوعاً بالطبيب الرئيس نفسه ، إنه معروف بعلاجه للدغات الثعابين. عندما ظهر، تنفس الجميع الصعداء، تذكروا شخصاً ما، ربما أختاً أو أباً أو زوجاً انتشل من بين فكي الموت. عندما أعطى الطبيب دواءه للصبي كان في حالة حرجة. مرت ثلاثون دقيقة، ساعة، ساعتان ثلاث ، أربع ساعات مضت ولم يتقيأ أي شيء. قبل منتصف الليل توفي. في تلك الليلة لم ينم أحد في (بامسو). لقد كان (كويزي) أول طفل يموت منذ تشييع المدرسة قبل ست سنوات " كان الابن الوحيد لأمه، ليس لديها أحد الآن لا نفهمها الحياة ليست عادلة" هذا هو القدر.

كان الصباح جميلاً جداً. يبدو كل شيء في القرية طبيعياً ويحتفظ بحيويته، كنت مرهقة. ذهبت إلى الفراش حوالي الساعة الخامسة صباحاً. وبما أنه السبت بإمكانني أن أنام لوقت طويل. عند العاشرة استيقظت فجأة على صراخ. فتحت نافذتي لكنني لم أستطيع رؤية المتحدثين، أثناء ذلك مر (كويكوسام) أحد الشباب في القرية وألقى التحية علي " صباح الخير شيشا " .

أجبتة " صباح الخير (كويكو)، ما هذا الصراخ؟".

" إنهم يتشاجرون "

" وعلى ماذا يتشاجرون الآن؟ "

" كل واحد يتهم الآخر بأنه المسؤول عن وفاة الطفل "

" ماذا؟ "

تتهد وقال " شيشا، لا أعرف. النساء فقط من يحبن افتعال المشاكل، يبدو وكأنهن غير راضيات بالبقاء بهدوء، عليهن تبادل الشتائم فيما بينهن. ما حدث كان جديا ليكون موضوعا للشجار. ربما أغضبت القرية الآلهة بطريقة ما، لهذا السبب أخذن هذا الولد .

لم استطع قول شيء في هذا، أو تفسير أي شيء، ثم إذا كان أهل القرية يعتقدون أن هناك أمرا في موت (كويزي) لا يستطيع العقل البشري تفسيره، من أكون أنا للاحتجاج".

" هل (مامي أما) هناك؟ "

" لا، لم أرها هناك "

صمتنا لوقت.

" شيشا، أعتقد أنه عليا المغادرة الآن. سمعت للتو أن أختي أنجبت طفلة ."

ابتسمت قائلة " حسنا، بلغها تهاني، واخبرها أنني سأتي لزيارتها غدا ."

غادر لتحية الابنة الجديدة لأخته. بقيت لمدة طويلة عند النافذة دون التركيز على أي شيء، عندما طرقت بعض الكلمات والجمل سمعي من الشجار، كانت ممزوجة بالبكاء. ابتعدت عن النافذة ونظرت إلى مرآة صغيرة كانت معلقة على الحائط، لم أتفاجأ لرؤية وجهي مغمورا بدموع لاشعورية. لم أكن أشعر برغبة في الذهاب إلى السرير. بل لم أشعر برغبة في القيام بأي شيء. راودتني فكرة الذهاب لرؤية (مامي أما) لكن أخيرا قررت عدم الذهاب، لن أتحمل مواجهتها، على الأقل في الوقت الراهن. جلست أفكر فيه. ذهب في حلم سري مرض لحسابه " كان علي أخذه بعيدا معي على الرغم من معارضة أمه. كان الطفل ولدا، لذا كان عليها أن تتعلم العيش بدونه عاجلا أم آجلا. كنت سأأخذه معي عند مغادرتي القرية، سأعلمه النحو، ربما، من يعرف يوما ما قد يفوز بمنحة جامعية" لم احدد في أحلامي أي مهنة سيشغل، إلا أنني كنت متأكدة أنه سيكون ذا شأن. بهيئة مدهشة كان ليكون معبود النساء وغريم كل الرجال. كان ليزور بريطانيا وأمريكا وكل تلك البلدان التي لطالما سمعنا عنها الكثير. كان ليرى عجائب الدنيا السبع. مامي ستكون سعيدة في النهاية. قلت لنفسني " الناس سيتهافتون لرؤية أم هذا الرجل المشهور، مع أنها

لم ترزق بغيره، إلا أنها ستكون محاطة بأولاده. في كل هذا المجد، لا مكان لأبيه " لكن هناك أنا وهناك (مامي أما) وهناك أبوه، إلا أن مصدر الجدل بالنسبة لنا الثلاثة لم يعد مجوداً، رأيت ذلك البرج العالي الذي بنيته ينهار في لمحة البصر ودون أن يحدث أية ضجة.

مراسيم الدفن تمت عند الرابعة. أخذت الأطفال لإلقاء النظرة الأخيرة عليه. عندما رأى أقرباؤه ذلك الوجه الصغير، نسى الجميع خلافاتهم وعمهم حزن شديد. خاطبتي جدته قائلة " شيشا، أه شيشا ماذا سأفعل الآن و(كويزي) مات؟ كويزي جمالي، كويزي سيدي، كويزي حياتي، كويزي... " وكانت إحدى خالاته تنوح " وفاة أبي تكررت بألم ".

واصلت الجدة قائلة " شيشا، أيامي البيضاء انتهت، لأجل من سأسقى بالماء؟ طعام أيامي نفذ، لأجل من سأرزق بالطعام؟ " وقفت هناك في صمت، تركت الأطفال يرددون عبارة " المسيح، بارك المسيح " وبعدها رافقناه إلى المقبرة.

بعد الجنازة ذهبت إلى منزل العزاء كما يفعل أهل القرية بعد الدفن. لا أحد افترض أن يبكي مرة أخرى فيما تبقى من اليوم، بقيت هناك استمع للزوار الذين جاءوا من القرى المجاورة.

قالت إحدى النساء " هذا أمر محزن حقاً، وغريب جداً. أصبحت المدرسة مثل التجارة، الذين أسسوها قديماً لأولادهم أكلوا من الأطفال أكثر مما درسوا. أن يكون لك صبي في عمر المدرسة ويختطف فجأة بين يديك أمر لا يحتمل حقاً ".

عقبت الأخت الصغرى لأبيه " أه، لا داعي للكلام، لقد فقدنا كنزاً "

قالت الجدة مرة أخرى " ابنتي! (كويزي) قد رحل، رحل إلى الأبد، انضم إلى أجدادنا، ماذا يمكننا فعله؟ "

" ماذا يمكننا فعلاً؟ عندما يتناثر الطحين في الرمل، من بإمكانه تصفيته؟ لكن هذا أحزن شيء سمعته، إنه وحيد أمه "

صاحت زائرة أخرى " هل هذا صحيح، كنت دائماً أظن أن لها أطفالاً آخرين. ماذا يمكن للمرء أن يفعل، عندما ينكسر الكأس الوحيد الذي يملكه ". بقيت المسألة معلقة في الجو، لا أحد تجرأ على قول المزيد.

خرجت، لم أعرف كيف وصلت إلى هناك، وجدت نفسي أمام خيمة (مامي أما) كان الباب مفتوحاً كالعادة، دخلت إلى الغرفة الخارجية، لم تكن هناك. وجدت بعض المعز من



القرية كانوا مشغولين بالتهام الـ (cassava) والـ (yams) . كانت في الغرفة الداخلية، ظلت بالملابس التي ارتدتها في مراسم الطلاق، لم تكن جالسة، واقفة أو مستلقية، كانت ساجدة وكأي أحد يغرق يتشبث بقشة، كانت تحتضن كتب (كويزي) وأدواته المدرسية إلى صدرها "مامي أما، هذه أنا مامي أما" ناديتها من الخارج لكنها لم تتحرك. تركتها لوحدها قدت المعز بعيدا خرجت وأغلقت الباب خلفي "عليا الذهاب الآن" تحدثت إلى نفسي.

غربت الشمس خلف شجرة الـ (coconut) نظرت إلى ساعتني، كانت السادسة لكن هذه المرة لن أجز.

### حكمة الأجداد (من تراث منطقة القبائل)

تعريب: أ د صالح بلعيد

استمعتُ هذه المرة إلى مجموعة من المستجوبين حول موضوع الأصالة وما ينجز عنها من متعلقات قديمة وحديثة، فدوّنتُ الكثير من الروايات والحكايات ومن مسموع الجدّ والجدات. لقد جلست مراراً إلى راويين، ولزمتُهُما تكراراً، واستمعت إلى حديثهما الطويل والعرض إمعاناً، وعن فعل الأجداد العتيد انبهاراً، وجاريتهما لاستخلاص المبتغى، واستجلاء الذكري، من فعل الأجداد الأولى وكانت جلساتي معهم جلسات الألف في فعل السلف، ورُمْتُ بها نفع الخلف، بما يرفع عنا الكلف. والأهمّ فيها أنني عقدتُ جلساتٍ لم تكن عدماً وتبّاراً، بل كانت تصديقاً وتوثيقاً، ممّا جمعته من أهل التسبيق، بعد أن أخبرتهما بأنّي أستهدف الكتابة في موضوع الأصالة، وألححتُ أطرحُ أسئلتني لحصر الحديث، وتوجيههما إلى الموضوع، فكتبْتُ المفيد في ما رمْتُ أن يكون سديداً، ويستفيد منه الطالب والمطلوب، فما ضاع علم وراءه باحثٌ مغناد، وما فسدت بضاعةٌ في سوق المزداد، ولا خاب من استزاد، وكذلك يحصل المراد، في كلّ مطلوب غير مُعاد.

لقد وقع إصراري على أن يحدثاني عن الأصالة (تأجاديث) ووجهتُ أسئلتني حول دلالاتها، وعن متعلقاتها، وما ينجز عنها من قوانين وسنن، والتي وضعها أجدادنا في القديم، وساروا عليها محافظين وبقوا يرسخونها دائمين، وكانوا يوصون أخلافهم مصرّين، وبضرورة اقتداء الأحفاد خُطى الأجداد وفي نيتهم كذلك تكون النّجاة من الأحقاد، وكبي يعتبر الداني من القاصي، والحاضر من